مذبحـــة حلـــب سنـــة 1850

الشهيرة بـــ

" قومة حلب "

نقلاً

عن رسائل من حلب إلى

جريدة التايمز الإنكليزية

تعريب واقتباس

وديـــع قسطـــون

تليها خلاصة تقرير عن هذه الفتنة رفعه

الأسقف بولس أرتين للطائفة المارونية بحلب

إلى

غبطة البطريرك الماروني يوسف الخازن في بكركي لبنان

ونقله الخوري **بولس قراألي** في كتيب :

" أهم حوادث حلب في النصف الأول من القرن التاسع عشر "

المقدمة:

نعود بالفكر زهاء **قرن** إلى الوراء لنشهد مأساة من أفظع المآسي التي عرفها أجدادنا في هذه البلاد وقد رسمتها ريشة رسام ماهر ساعدته **حصانته الأجنبية** على مشاهدة معظم فصولها ، فصورها لنا بأصدق ما تصور به أمثال هذه النكبات في ساعة الهول واللوعة والاضطراب

والوصف الذي ستقرؤونه معرب عن رسالة موقعة بحرف **/ C /** الأجنبي لعله هو الحرف الأول من اسم **القنصل الإنكليزي** آنذاك بحلب ومؤرخة في **1850/10/26** أي بعد وقوع الفتنة بأيام قلائل وقد ذيلت بحاشية قصيرة مؤرخة في **1850/10/29** وقد نُشرت الرسالة والذيل في جريدة **التايمز الإنكليزية** في عددها الصادر بتاريخ **1850/11/22**

وقد تسنى لي أن أقف على هذه الرسالة عَرَضاً، إذ وجدتها ملصوقة على غلاف الجزء الأول لديَّ من كتاب "**تاريخ حلب الطبيعي**" المطبوع بالإنكليزية سنة **794**، لمؤلفيه الدكتورين الأخوين "**ألكسي وبات رسل**" الإنكليزيين وقد عرّبتُ الرسالة والرسالة الأخرى التي تلتها تعريباً أميناً بقدر ما تسمح به أوضاع اللغة، وأضفت إلى الرسالتين حواشي قليلة ضرورية لإيضاح بعض الحوادث أو تعريف بعض الأعلام.

حدثنا **المراسل الإنكليزي** لجريدة "**التايمز**" الإنكليزية بقوله:

أنقل إليكم خبر فتنة ومذبحة عمياء جرت في هذه المدينة، مدينة حلب، ذهب فيها **المسيحيون** الآمنون المسالمون ضحية تعصّب جيرانهم **المسلمين** الأعمى الذين يعيشون معهم سنيناً طويلة ويتقاسمون كل شيء بينهم كأهل وأحباء، وهو حادث خطير يستحق أن تهتم به صحيفة عظيمة الشأن كصحيفتكم وأن يقف عليه **الشعب الإنكليزي وحكومته**، وقفة الحق والاستنكار.

كان بدء الفتنة في **1850/10/16** بعد العشاء، إذ هاجمت **عصابات مسلحة** من **المسلمين** بيوت **المسيحيين** القاطنين في حي **الصليبة والجديدة** فدخلوها عنوة، ونهبوا كل ما فيها من **أثاث، وأمتعة، وحلي وغيرها**، وأعملوا **السيف والنار** في كل من تصدى لمقاومتهم، أو سوّلت له النفس للدفاع عن ماله أو عرضه أو مقدساته، واستمرت تلك الفظائع على أشدها نهار **10/17** بكامله، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى أصبح **سبعة آلاف مسيحي** دون مأوى، يهيمون على وجوههم في أزقة المدينة وأحيائها، وفيها أعرق الأسر الحلبية شرفاً، وأوسعها جاهاً، وأوفرها ثراءً.

وإذ كان يهمني أن أعرف ما جرى **للمرسلين البروتستانت الأميركيين** وأهم معارفي في ذاك الحين، ورغبة مني أيضاً في الوقوف على حقيقة الأمر بنفسي، سرت إلى حي "**الصليبة**" وقد اصطحبني عشرة رجال مسلحين كنت أثق بهم وأعتمد على إخلاصهم، فكانت الطرقات المؤدية إلى ذلك الحي مكتظة **بالمسيحيين** من كلا الجنسين فهناك **الشيخ، والطفل، وأرباب الأسر، والرضّع، والحبالى**... وكل منهم قد هرع مذعوراً خائفاً وهاله مما رأى من **حرق لكنائسه وهتك لحرمات منازله، ونهب لثرواته، وإتلاف لممتلكاته، وفضح لأعراضه ونسائه، بل وذبح أهله أمام عينيه في بعض الأحيان..**

ولما بلغتُ **الصليبة** وصرت في وسط الاضطراب، وجدت مئات من **المسلمين** وهم **ينهبون المنازل، ويحرقون الكنائس**، وينزلون كل أنواع المظالم في شعب مسالم أمين، ثم يهربون بغنائمهم أحراراً سالمين، يجري كل هذا في وضح النهار، وعلى مرأى من جنود الحكومة ولا يردعهم رادع ولا يعارضهم معارض، فقد **حرقوا ثلاث كنائس** أخص منها **كنيسة السيدة للروم الكاثوليك، وكنيسة مار آسيا الحكيم للسريان الكاثوليك، وكنيسة السيدة للروم الأرثوذكس** وتقدر قيمة الكنائس الثلاث المحروقة **بخمسة وعشرين ألف ليرة إنكليزية**، وقد نهبوا **خمس كنائس** أخرى وأتلفوا **مكتبة ثمينة** تحوي على عدد كبير من مخطوطات **سريانية قديمة** وقتلوا **ثلاث كهنة**، وعدداً يناهز /14000/ شخص، وجرحوا كثيرين، منهم **مطران السريان الكاثوليك** وهو شيخ وقور في الثمانين من عمره وقد مات بعض الجرحى والبعض قد أشرف على الموت، وقد نهبوا أهم أحياء المسيحيين: "**الصليبة – الجديدة – التومايات – حارة العنكبوت- التدريبة – بوابة أم بطرس – بوابة القصب – بوابة الخل**". وتقدر الخسائر من الأموال والممتلكات **بمليون ليرة إنكليزية** تقريباً.

أما أسباب الفتنة فتعزى إلى أمور ثلاثة :

1- سوء تصرف الحكومة .

2- سياسة الأحزاب .

3- التعصب الديني .

سوء تصرف الحكومة:

كان **الباشا والي** الولاية قد أذاع منذ عهد قريب مرسوماً يدعو فيه فريقاً من المسلمين إلى **الجندية** (والمسيحيون كانوا معفون دائماً من هذه الخدمة) فلم تحظى دعوته على الارتياح في نفوس المسلمين، وأجمعت كلمتهم على مقاومتها إقتداءً بأهل الشام (**دمشق**) وببعض سكان الملحقات، ثم الفرار إلى الصحراء، أو اللجوء إلى إحدى القرى التي لم يخضع أهلها لذلك المرسوم..

ليس من ينكر أن على أية حكومة حق تجنيد الأهالي، ولكن أن تحاول ذلك دون أن يكون لديها قوة كافية تساعدها على الحفاظ على الأمن والنظام ما قد ينتج عن عملها من سوء التصرف فهذا تهور وخرق في السياسة ولاسيما وقد جاء **عصيان أهل الشام** نذيراً بما قد يحدث في مدينة حلب، فلقد كان من الواجب على الحكومة أن تستعد للأمر لسحق كل تمرد، ولكنها لم تفعل، بل إنها على العكس تماماً فقد أرسلت إلى **الشام** منذ بضعة أيام معظم **الجنود** الذين كانت تتألف منهم حامية المدينة ليساعدوا على إخماد نار **الثورة** التي نشبت هناك، ولم يكن يكفي تلك القلة القليلة من الجنود الباقية في حلب والمترامية على أطراف المدينة كافية لحفظ الأمن وإخماد الفتنة، لذلك كان الإصرار على جمع الجنود في مثل هذه الظروف هي خرق في الرأي والسياسة، على أن هذه الحقائق لم تكن خافية على رجال **الحزبين المتزاحمين** على السيادة في المدينة ، ولكنهما فضّلا أن يتجاهلاها لغاية في النفس كما سنرى لاحقاً.

سياسة الأحزاب:

في مدينة حلب **حزبين كبيرين** يرأس أحدهما **والي الولاية**، ويرأس الثاني **حاكم المدينة**، وحاكم المدينة هو من بقايا ومخلفات **الفرقة الانكشارية** البائدة، وُلد في إحدى القرى المجاورة (**بابنس**) وبدأ حياته أجير قصاب، ثم وصل بوسائله المنافية للشرف والفضيلة إلى منصبه بفوز كبير، واستطاع بدهائه وحيله أن يحافظ عليه سنيناً طويلة مَثله مَثَلَ **/فوشيه/** (**وهو اكليريكي فرنسي ولد عام 1759 وأصبح من أشد دعاة الثورة الفرنسية ضد الملكية، ثم تقلد عدة مناصب علمانية في الدولة فغرته نفسه فخلع الثوب الكهنوتي وأصبح من أشهر المغتصبين للكنائس وسلبها وكانت له اليد الطولى في قتل الملك لويس السادس عشر، ومع الأيام اكتشف أمره بعد تقلبات كثيرة من حزب إلى آخر فنفي إلى خارج البلاد ومات هناك عام 1820**) وكان يعلم بكل ما يجري في المدينة من الأعمال السيئة، كما أنه كان قادراً على القبض على مرتكبيها بسهولة بالغة ومتى يشاء، لذلك كان الخوف منه يملأ قلوب الناس أجمعين، إلا أن نفوذه قد أثار الحسد والبغض له في قلب **الوالي**، فجرّده من معظم سلطاته التي كان يتمتع بها، لأن سياسة **السلطان** تقضي بأن كل أمر يجب أن يصدر منه فقط دون غيره من أفراد رعيته.

تلك كانت الحالة عندما وقع الاعتداء الوحشي على **المسيحيين**، وليس من الصعب أن نتصور أن **الحاكم** لم يكن يميل إلى إخماد الفتنة، بل بإمكانه ذلك، إلا أن مصلحته كانت تقتضي أن يدعمها ويدعها تأخذ مجراها حتى إذا ما عجز **الوالي** عن قمعها والضرب على أيدي مثيريها، عندئذ يتدخل هو ويخمدها في الوقت المناسب فينال رضى الشعب والالتفاف حوله والخوف منه في آن واحد ويستعيد نفوذه في الولاية، وهذا ما قد جرى فعلاً.

ففي صباح **يوم 1850/10/17** انسحب **الوالي** إلى الثكنة العسكرية المطلة على المدينة، وأقام هناك هو وحاميته وهو يشاهد ما يجري في المدينة ولا يبدي أي حراك ولا يأبه لشيء.

وكان الجنرال **بيم** (**Bem**) **البولوني** (**وهو من أصل بولوني واسمه "جوزيف بيم"، اشترك في الثورة البولونية عام 1830 ودخل عدة حروب، ثم التجأ إلى تركيا واعتنق الإسلام، وعيّن ضابطاً في الجيش التركي واصبح اسمه "كريم باشا" توفي في 1850/12/10 ودفن في مسقط رأسه غاليسيا البولونية**) فإنه قد تعهد بحياته أن يوقف الفتنة ببضعة مدافع وبخمسمائة جندي فقط، ولكن **الوالي** أبى أن يلبي طلبه بحجة أن ما اقترحه غير كاف لإخماد مثل تلك الفتنة، والحقيقة أن **الوالي** فضّل أن ينحاز إلى **تعصب** الشعب **الديني**، على أن يرى المسلم يقاتل أخاه المسلم دفاعاً عن المسيحي،

ولاسيما أن ذلك **الوالي** كان قد أثار استياء الشعب له لتشديده الخناق على المسلمين في أمر **الجندية**، حتى أصبحت حياته في خطر، لذلك وجد نفسه وبدافع **الخوف** من جهة، **والتعصب الديني** من جهة أخرى أن يدع الفتنة تأخذ مجراها وأن لا يتصدى لها أبداً وهنا نرى أن كلمة **الحزبين** يومئذ لم تتفق إلا في أمر واحد وهو أن "**إذلال المسيحي وسحقه**" هو أعظم خدمة تُؤدى إلى **الإسلام**، وكان حاكم المدينة **(البابنسي)** يزيد في إشعال نار الفتنة، إذ كان يرى فيها أعظم خدمة وعون له على استعادة نفوذه وسلطانه المفقودين، وأما عامة **الشعب المسلم** فكان يرى أن نهب **المسيحيين** يغدق عليهم المال الكثير الذي سيساعدهم على الفرار من **الجندية** واللجوء إلى الصحراء، فكانت **المصالح الثلاث متفقة ومنتفعة ومتلاقية** في هذه الفتنة الوحشية على شعب مسالم أمين الذي ذهب ضحية مصالحهم الدنيئة السافرة.

التعصب الديني:

كان هذا الداء الوبيل مستفحلا" في صدر كل مسلم، وكان **المتصوفون، والمشايخ، والمؤذنون** لا يترددون في الاتفاق على نهب من أثرى وعظم جاهاً من غير المسلمين، بل كثيراً ما كانوا يُسمعون عامتهم رأيهم ويحرضونهم على ذلك ويحللونه لهم، وكان **المسيحيون** من **روم كاثوليك، وأرمن، وسريان، وموارنة** يعيشون عيشة رخاء ورفاهية، وكثير منهم كانوا يملكون المنازل الأنيقة والأثاث الثمين، وقد شيدوا لهم بضعة **كنائس** جميلة، منها **كنيسة السيدة للروم الكاثوليك** في **الصليبة** (ساحة فرحات)، وكانوا قد فرغوا حديثا" من بنائها، وأنفقوا عليها آلاف الليرات الإنكليزية، وكان **الموارنة** يرممون كنيستهم ويوسعونها، وقد تنبه المسلمون لهذه الأمور غير أن ما لفت نظرهم واسترعى انتباههم بصفة خاصة وأثار سخطهم أيضا" هو سلوك **بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس مظلوم** الذي قام بزيارة **السراي** حيث كان **عيد الأضحى** عند المسلمين ويوم قيام **المذبحة** أيضاً أي يوم **1850/10/16**، ذهب إليها في موكب حافل وقد امتطى جواداً على عادة الأمراء، يتقدم موكبه **صليب وعكاز** من فضة مرفوعين بشكل بارز، فأدى ذلك إلى سخط **رؤساء المسلمين ومشايخهم** الذين كانوا قد جاءوا مثله ليهنؤا **الوالي** بالعيد، وقد عدوا تصرفه هذا هو خرق للتقاليد المرعية وتحدٍ لهم، وإفراطاً في الزهو والأبهة والوجاهة عليهم وتحدياً لهم، فلا عجب بعد ذلك إن رأينا القوم الثائر يصعد سطح **كنيسة الروم الكاثوليك** قبل إحراقها ويثيرون الشعب المتألب حولهم بقولهم:

" اهجموا وانقضّوا على المسيحيين وأهلكوهم واذبحوهم ".

ليلة المذبحة:

لقد سارع القوم إلى تلبية ندائهم الذي ينتظرونه منذ زمان بعيد **فقتلوا كاهناً وقطعوه إرباً إرباً، وأحرقوا كاهناً آخر**، بشكل وحشي وفظيع.

هؤلاء المسيحيين المساكين، قد ثقلت يد الجور عليهم وهم لم يؤذوا أحداً قط، وها قد انقضت عشرة أيام منذ هاجروا من منازلهم ولم يجسر أحدهم على الرجوع إليها، وقد امتلأت بهم **الخانات** التي يقطنها /**7000**/ **لاجيء** موزعين على **خمسة عشر أو ستة عشر خاناً**، التي تقيم فيها **الجالية الأوروبية** في المدينة.

واما **البطريرك مظلوم** الشهير فقد اختبأ يوم الفتنة في **مغارة** ومعه **مطران الطائفة**، وفي المساء لجأ إلى **خان العلبية** عند **قنصل نابولي** بعد أن تستر **بثياب نسائية**، ومنهم من يقول بأنه اختبأ في منزل بيت **كبابة** خلف العمارة القريبة من كنيسة الروم الكاثوليك.

وهنا لا يسعني إلا أن أشيد بفضل **المسيو دليسبسي قنصل فرنسا** آنذاك وما سجل له من الحسنات في تخفيف شقاء أولئك البائسين وتخفيف الوطأة عليهم فقد آوى في دار القنصلية /200/ لاجيء، وهو يعتني بهم خير عناية كذلك اعتنى بـــ/600/ سواهم موزعين في خانات المدينة وهو يقدم لهم يومياً ما يحتاجونه من طعام وعلاج، على أن ما يُذكر لهذا الفاضل يُشكر عليه خاصة سعيه الحثيث إلى إرجاع النظام إلى نصابه وإحلال الثقة في القلوب.

ومما يحز في النفس رغم الفوضى السائدة منذ قيام الفتنة ما فوجئ به المسيحيون آخراً عن الاتفاق الذي تم بين **الوالي والثوار** الذي وقعه **الوالي** الضعيف الخائف، والذي يشمل على بعض البنود التالية:

- **إعلان العفو العام عن الجناة الثائرين.**
- **الإعفاء من الجندية.**

- **امتناع الكنائس عن قرع الأجراس.**
- **عدم إظهار الصليب خارج المعابد.**
- **ترقية حاكم المدينة إلى رتبة قائم مقام، وعزل بعض الموظفين..**

وقد تم إرسال صك إلى **الباب العالي** أكره فيه كبار المدينة وزعماؤها على توقيعه بالتهديد والوعيد، يشهد فيه موقعوه ويؤكدون أن **الفتنة** التي وقعت في حلب إنما هي فعل فاعلين من عرب من البادية، ساعدهم فيها بعض الرعاع من أهالي المدينة، وهم يأسفون أشد الأسف لما وقع **للمسيحيين** من ظلم وجور وما أُنزل بهم من خسائر فادحة في الأموال والأرواح والممتلكات، ويؤكدون أنهم قد عُوّضوا مما فقدوه، وأن المسلوبات قد أعيدت إلى أصحابها سالمة.

الوضع العام في المدينة:

إن الظلم، والخداع، والذبذبة نزعت الثقة من كل نفوس المسيحيين، فتوقفت الأعمال، وحركة البيع والشراء بين الطرفين إلا المواد الغذائية، وبات المسيحيون متحصنون في خاناتهم يقفلونها ليلاً ونهاراً، وقد أقاموا حولها الحراس المسلحين الذين استأجروهم بالنقود لحراستهم والدفاع عنهم عند الحاجة، وراحوا ينتظرون ويحلمون بفارغ الصبر وصول **النجدات العسكرية** لإعادة سيادة السلطة والهدوء، فهل تصلهم يا تُرى بعد طول انتظار والفتنة مدبرة ومدروسة منذ مدة؟؟.. وهل تكون أعمالها حاسمة مؤثرة؟ ؟.. فعليها يتعلق مستقبل الأمن في المدينة، وهي وحدها الكفيلة بمنع تكرار ما شوهد من الفاجعات.

إن **المسيحيين** يعلقون آمالاً كبيرة على اهتمام **الدول الغربية** بما وقع لهم من نكبات وما صاروا إليه من شقاء، ومن حسن السياسة، وبُعد النظر، أن تُسارع كل من **فرنسا وإنكلترا** إلى الاحتجاج بشدة على الفظائع التي جرت، إن الإنسانية لترفع صوتها حاليا" للمطالبة بحماية الضعيف المسالم، وإنزال القصاص بالمجرم الظالم فهل "**التايمز**" سترفع صوتها أيضاً؟؟.. وأن تعلن غضبها عسى أن يصل رعدها إلى مسامع أرباب الحل والعقد في **بلاد الغرب**، فيدركوا خطورة الوضع ويسارعوا إلى نصرة المظلومين.

لا بد من القيام بعمل ما لنصرة شعب مسالم مسكين، محافظ على هدوئه وسكينته في أدوار عصبية كان يعجز غيره أن يقمع فيها عواطفه، ويحافظ على ثبات جأشه ، فلقد تصرّف تصرّف **المسيحيين الحقيقيين**، مطبقاً أفعاله على تعاليم دينه، وقد يُسمى جباناً، **ولكنه لا يُسمى مجرماً.**

إني أحث عواطفكم وعواطف قرّائكم، فلا أنقل إليكم أخبار الفظائع التي أسمعها كل يوم بل وكل ساعة، ولا أصف لكم ما حدث **للأطفال والشباب والفتيات الطاهرات العفيفات**، ولا أحدثكم عن الذين وقعوا في قبضة المسلمين ولا يزالون في قبضتهم، ولا عن الذين قُتلوا وذُبحوا بفظاعة تترفع عنها الوحوش الضارية.

وآخر ما أقوله، إن **حكومة الباب العالي** في جميع **القطر السوري** هي أضعف بكثير مما تتصورون، فعلى **دول الغرب العظمى** أن تتدخل في الأمر تدخلاً جدياً، وتدفع ولاة الشأن في **العاصمة العثمانية** إلى إجراء تحقيق دقيق صادق عن الفظائع التي أُقترفت، وعن الحالة التي وصلت إليها البلاد، جادة للقيام بالأعمال الحازمة والإصلاحات الضرورية التي يتطلبها واجب الإنسانية وخير السلطنة.

حلب في 1850/10/26 | **التوقيع**
C

تذييل في 1850/10/29، بعد الظهر

لقد تحسنت الحالة بعض الشيء، ولاسيما فيما يتعلق منها بالراحة الشخصية، على أثر ورود بعض النجدات العسكرية، وعودة معظم اللاجئين إلى منازلهم، وقد فُتحت الخانات ولاحت بوادر السكون ولو كان ذلك ظاهرياً بفضل المساعي المبذولة لإعادة الأمن وتعزيز النظام، على أن عوامل الشر ما زالت تعمل في الخفاء في نفوس المسلمين، فقد أخذ الشعب يتسلح استعداداً لمقاومة الحكومة، إذا ما وجد خطة السلطان مخالفة لآماله، فالثقة لن تتوطد إن لم تتوطد هيبة الحكومة وسطوتها فعلاً.

انتهاء الفتنة ومعاقبة الجناة:

مر في مالك "**تاريخ حلب الطبيعي**" الآنف الذكر على أن يكون لديه تاريخ كامل عن **الفتنة الحلبية** ، فألصق بجانب الرسالة التي انتهيت من تعريبها **مقالة** قطعها من عدد لمجلة "**التايمز**" الصادر في **1850/12/5** وفيها ترجمة لرسالتين واردتين عن بعض **العثمانيين** في **لندن** عن انتهاء الفتنة ومعاقبة الجناة إحداهما صادرة في **1850/11/9**، أي بعد الفتنة **بأربع وعشرين يوماً**، والأخرى في **الأستانة** في **1850/11/20**، ولما كان موضوع الرسالتين واحداً تقريباً، فقد رأيت أن أكتفي بتعريب رسالة **حلب**، وأن أستعين برسالة **الأستانة** لإيضاح بعض الأمور المبهمة، أو لبيان أوجه الخلاف بين الرسالتين، وهكذا أكون قد جمعت في مقال واحد خلاصة الرسالتين وأهم ما جاء فيهما مما يستحق النقل والتدوين.

ما قاله المراسل الحلبي:

محاولة القبض على العصاة:

في **الخامس من تشرين الثاني** الحالي، أرسل **مصطفى باشا** والي **حلب** فاستدعى إليه **عبد الله بك** حاكم المدينة **وابنه وأتباعه**، وسجنهم في الحصن الذي كان قد اتخذه معقلاً له (ولعله قصد به الثكنة العسكرية أو الأكمة المعروفة **بالشيخ يبرق**).

ولما بلغ خبر القبض على **عبد الله بك** مسامع **العصاة** ثارت ثائرتهم وتجمعوا وجاءوا إلى **الباشا** يطالبون بإخلاء سبيله، ثم هجموا على الحصن بغية إنقاذ رئيسهم عنوة، فما كان من **الباشا** إلا أن سلّط نيران المدفع الذي كان في جوزته، فحصدت صفوفهم حصداً، وشتتت شملهم شر تشتيت، وفر مَن سلم منهم لا يدري إلى أين ولا يلوي على شيء، وتبعتهم **جنود الباشا** وهم يطاردونهم حتى بلغوا أحد أحياء الثوار فدخلوه ونهبوه وأحرقوه.

وفي **اليوم التالي**، اجتمع العصاة بعدد أكبر وأعظم من اليوم الأول، وهاجموا معقل **الباشا** من جديد، فتصدى لهم الجند والتحم الفريقان في معركة دامت **ست ساعات** انتهت باحتلال الجنود لحي آخر من أحياء الثوار.

وفي **اليوم الثالث**، هاجم العصاة الجنود بعدد أكبر جداً من اليوم السابق، وكان معهم **قرويين ورعاع ولصـــوص الطرقـــات والمجرميـــن** جمعوهم من القرى المجاورة والأحياء المشهورة بأوكارهم، وكانت معركة دامية سقط خلالها عـــدد كبير من القتلى من كلا الجانبين، وانتهت أيضاً بانتصار الجنود واستولوا على الحي الأخير من أحياء العصاة ونهبوه بكل ما فيه وأحرقوه.

رسالة الأستانة:

وفيها أن الأحياء التي نُهبت وأُحرقت هي: **فارلق** – **بنقوسا - باب النيرب**، وكانت هذه الأحياء الثلاثة تُعد معقل الثوار والعصاة، ولقد بلغ عدد قتلى العصاة في الأيام الثلاثة **/1800/** قتيل، وقد أحرق الجنود جثثهم إرهاباً وانتقاماً، ولم يُقتل مسيحي واحد في جميع هذه المعارك.

الرسالة الحلبية:

وجاء فيها أن معظم الذين سلموا من **الثائرين** هربوا إلى خارج المدينة فطاردتهم **الخيالة**، وتعقبتهم حتى استسلموا فأودعوا في السجون، وكذلك فعل الجند داخل المدينة فكان في كل يوم يكتشفون مخابئ العصاة فيقبضون عليهم ويسلمونهم إلى يد العدالة حتى تقتص منهم، أما ممتلكات القتلى من الثوار أو مَن ثبت اشتراكه في النهب والسلب، فقد حجزتها الحكومة لتعوّض بها **المسيحيين** من الخسائر التي أصابهم أثناء الفتنة، ولتساعدهم على بناء ما قد أحرق من **كنائسهم** وهُدم **لمنازلهم**.

وختم **المراسل القسطنطيني** رسالته بما يلي:

لقد أخطر **السلطان عبد المجيد** أن يلجأ إلى الشدة والبطش في قمع هذه الفتنة، ولا لميل في نفسه إلى الظلم وهو المشهور بالعدل والحكمة والرأفة وبعد النظر، بل ليقضي على عناصر الفساد والفوضى والشر التي كانت تهدد البلاد من أقصاها إلى أقصاها بشر رهيب لا نهاية له، وليُفهم الرجعيين والمتعصبين الدينيين أن مبدأ التسامح

والتساهل الديني الذي نهجه منذ أن تبوأ العرش هو المبدأ الصالح الواجب للحياة والتعايش السلمي في السلطنة، وأنه سوف يحافظ عليه حتى نهاية أيامه، ولن يتخلى عنه أمام حملات المتعصبين وفتن المتنفذين الانتهازيين المغرضين.

بعد أن فرغتُ من تعريب الرسائل التي نشرتها جريدة "**التايمز**" **الإنكليزية** من ثورة **حلب**، عثرت على وصف أعمّ وأوسع عن تلك الثورة في كتاب **للخوري بولس قرألي** عنوانه "**أهم حوادث حلب في النصف الأول من القرن التاسع عشر**"، وقد نقله عن تقرير محفوظ في سجلات **البطريركية المارونية في بكركي – لبنان**، يرجّح أنه **للمطران بولس أرتين** أسقف **الطائفة المارونية** في حلب (1829-1851)، كتبه بعد قيام تلك الفتنة وقبل أن تُعرف نتائجها النهائية، ورفعه كتقرير شبه رسمي إلى **البطريرك الماروني يوسف الخازن** (1845-1854).

وقد اقتبستُ من التقرير المذكور ما اعتبرته متمما" لما جاء في جريدة "**التايمز**" عن تلك الحادثة التاريخية الخطيرة، بعد أن تصرفتُ في بعض العبارات بما يجلو غموضها أو يقربها من النص.

التقـــــريـــــر

المجزرة:

في الليلة الواقعة في /12/ **ذي الحجة**، والمصادفة لليوم /17/ **تشرين الأول**، اجتمع بعض سكان **الأحياء الإسلامية** من **باب النيرب والفضيلة، وقرلق، وبنقوسة**، واتفقوا فيما بينهم على أن يعصوا أمر الدولة في أمر تجنيدهم، وبما أن الأمر السلطاني صادف في **عيد الأضحى** في /10/ **ذي الحجة**، فقد أجّل أرباب الحكم تنفيذ الأمر إلى نهاية أيام العيد، وفي الليلة الثالثة من العيد تسلّح أهل الأحياء المذكورة إعلاناً ببدء العصيان، مستغلين فرصة قلة عدد الجند في المعسكرات في حلب وإرسالهم إلى دمشق لإخماد فتنتها، واختاروا رئيساً لهم حاكم المدينة **عبد الله بابنسي** الذي كان أيام الحكم المصري لحلب قد عُيّن **حاكماً** عليها (تفنكجي باشي) أي (نائباً للوالي) ثم أُهمل شأنه بعد خروج المصريين منها، فضعفت مكانته وقلَّ شأنه، فاستغل الفرصة لاستعادة مكانته وسلطانه في المدينة عن طرق هذه الفتنة.

خرج الجميع بعد **الغروب** بثلاث ساعات وهم يحملون السلاح والعصي وهم يهتفون "**الله أكبر**"، وتبعهم سكان الأحياء الأخرى، فشكلوا مجموعات توجهت بعضها إلى **السراي** (دار الحكومة) حيث يقيم **الوالي مصطفى ظريف باشا** ليستولوا على السلاح اللازم لهم، فلما شاهدهم **الوالي** أمر بإغلاق أبواب السراي، وحذّر حرسه من التعرض لهم ومقاومتهم، فاكتفى الثوار بضرب الأبواب لمدة قصيرة ثم عادوا على أعقابهم وهم يصرخون "**هيا لنهجم على النصارى ونقتلهم**"، أما الوالي فما أن رأى الثوار قد ذهبوا حتى غادر السراي، وتوجه مع رجال دائرته إلى **ثكنة الشيخ يبرق** حيث يقيم بعض الجنود القليلي العدد، وقد حاول بعض **الثوار** أن يهاجموا الثكنة ولكنهم ارتدوا عنها أمام بعض الطلقات المدفعية التي أُطلقت عليهم تخويفاً، وتحول الجمع إلى **حارات المسيحيين** بعد أن كسّروا أبواب مداخلها **بالفؤوس والسيوف والخناجر والبنادق** وغيرها من مختلف أنواع الأسلحة والآلات الحديدية الأخرى ونهبوا الأموال والأمتعة، وويل لمَن يقف في وجههم، ولم تستطع حتى الأبواب الخشبية الضخمة ولا التحصينات أن تصمد أمام أسلحتهم، فقد كانوا يحطمونها بسرعة فائقة، وأصواتهم العالية الهادرة التي كانت ترتجف منها قلوب الشجعان والأبطال قد امتزجت **بعويل النساء المسيحيات وبكاء الأطفال**، وأصوات التكسير والهدم وأزيز الطلقات النارية من بنادقهم وكأن القيامة قد قامت.

ولم يكتفوا بنهب الأموال فقط، بل كانوا **يضربون النساء والفتيات بقسوة ويفضحون أعراضهن ويغتصبونهن أمام الملأ**، أما الأشياء التي لم يتمكنوا من نهبها فكانوا يتلفونها تماماً، فكم من مرآة فاخرة كسروها وكم من أيقونة مزقوها، وكم من رف ومنجور مزخرف أتلفوه وحرقوه، وكان قد كلّف أصحابه عشرات الآلاف من الليرات الإنكليزية، وكانوا يخلطون **الحنطة مع العدس والرز والبرغل ويصبون فوقها السمن والزيت والعرق والخمر** كي لا يُستفاد منها أبداً، وكانوا يحطمون الصناديق الإفرنجية الفاخرة، وصناديق النقود الهندية الغالية الثمن بعد أن ينهبوا كل ما فيها، وبالاختصار فإنهم لا يخرجون من المنزل إلا وقد هدموه وجردوه من كل ما فيه وتركوه مسكناً للبوم والغربان، ولم يتركوا شيئاً فيه قد يستفيد منه صاحبه، كما **جردوا الرجال والنساء والأطفال من جميع ثيابهم ولم يتركوا لهم إلا ما تتستر به عوراتهم فقط**.

كما حاولوا تلك الليلة أن يفتحوا **حي الصليبة** فضربوا بواباتها بالفؤوس ضرباً شديداً ولكنهم لم يفلحوا فتركوها وذهبوا إلى أحياء أخرى.

ولم يزل النهب مستمراً والصراخ والعويل قائماً حتى **الساعة التاسعة ليلاً** (أي **ست ساعات** متواصلة) حيث رجع **الثوار** إلى محلاتهم وأخذوا في التشاور ورسم الخطط لنهب **حي الصليبة** في اليوم التالي، أما **أعيان المدينة من المسلمين** فقد هالهم الأمر وهربوا جميعهم إلى **ثكنة الشيخ يبرق** العسكرية ليتفقوا مع **الوالي** في إيجاد طريقة تعيد الأمن إلى المدينة ولكنهم لم يتوصلوا معه إلى نتيجة ما.

الخميس المشؤوم:

ولما بزغ فجر اليوم التالي **الخميس المشؤوم**، أخذ الرعب والهلع مأخذه في قلوب **المسيحيين** القاطنين في **حي الصليبة**، وطفقوا يفكرون في طريقة مناسبة يحمون فيها حيهم الشهير، فاجتمع بعض أعيانهم في **مطرانية الروم الكاثوليك**، وتشاوروا فيما بينهم على حل مناسب، ولكن اجتماعهم باء بالفشل لتضارب الآراء وغرورهم بأنفسهم بأن الثوار لن يستطيعوا أن يمسونهم بأذى خوفاً وتحسباً منهم لأنهم **أعيان المسيحيين** في المدينة، إلا أن اليهــود كانوا أذكى بكثير منهم، فقد استدركوا خطورة الموقف، فأرسلوا حالاً مبلغاً من المال إلى **عبد** الله **البابنسي** طالبين منه حمايتهم وصد الأذى عنهم، وهكذا استطاعوا أن يحموا محلاتهم وبيوتهم ببعض **الحراس** الذين أرسلهم **عبد الله البابنسي** لهم لحمايتهم من عصاباته، وهكذا تمت حمايتهم كلهم من أيدي **الثوار** فكان إذا نُهب محل أو بيت مسيحي مجاور لغيره من اليهود، كان الثوار يجتازونه إلى بيت مسيحي آخر دون اليهودي، رغم تلاصق المنازل والمحلات المسيحية واليهودية مع بعضها البعض، ولكي يستطيع الثوار التفرقة بينهم كانوا يرسلون أشخاصاً ليلاً ليرسموا **الصليب** على أبواب منازل ومحلات المسيحيين، لكي يتم التعرف عليها في حال نشوب الفوضى والغوغاء بينهم.

يا لغباوة **أكابر المسيحيين** ومفكريهم المغرورين لسوء تدبيرهم، فإنهم بعد أن سمعوا وشاهدوا ما حل بجيرانهم في الحارات الأخرى من أبناء دينهم من الدمار الجسيم ليلاً، فإنهم لم يفكروا إلا بتحصين البوابات بالأخشاب والحجارة مما يثير في نفوس العقلاء ثائرة الضحك والسخرية والهزء، وكأن لديهم وراء الأبواب المدافع العديدة والعدد الكبير من الأبطال للدفاع عنهم، ولكن ما أن وقعت الواقعة حتى عُميَ البصر وشبت الفوضى بينهم.

لم تنقضي ساعتان على شروق شمس **الخميس المشؤوم** حتى اجتمعت جماهير السلب والنهب من جميع أطراف المدينة في منطقة **باب الفرج**، ولحق بهم جمع غفير من أهالي **القرى والبدو والرعاع وقاطعي الطرقات** وكأنهم مدعوين إلى وليمة دسمة، وابتدأت الطبول تقرع بأصواتها المرعبة المخيفة، وعلت أصوات نسائهم بالتهليل والأهازيج، وأصوات الرجال بالتكبير والصراخ والعبارات المهيجة للنفوس، وكانوا يرددون عبارات: "**الله أكبر.. هجوم على الصليبة.. اليوم يوم التضحية.. يوم النصر على الكفار.. إنه يوم الجهاد.. مَن كان مسلماً فليتبعنا..** ". وكانت نساؤهم قد لحقت بهم كالسيل الهادر وهي تزغرد لهم، حتى أننا اعتقدنا أن باب الجحيم قد فُتحت علينا وقذفت بما فيها، وأحاط الثوار بالحــي مــن جميع جهاته وأخذوا يضربون أبوابه **بالفؤوس والآلات الحديدية** الحادة ضرباً شديداً متواصلاً، أما **المسيحيون** فهالت قلوبهم بالخوف والهلع والرعب المخيف، وهم يسمعون تلك الأصوات الهادرة، ويشاهدون تلك الألوف المؤلفة المستكلبة التي لا يعلم عددها إلا الله وحده، وهم يدورون يمنة ويسرة ولا يجدون مَن ينقذهم أو يستنجدون به، ولم يكن أحدهم يتجاسر أن يخرج خارج داره، بل مَن كان على السطح لم يكن يجرؤ حتى على النزول إلى بيته ليأخذ شيئاً منه، **فالرجال** يرتجفون هلعاً وخوفاً، **والنساء والأولاد** يبكون ويولولون، ولم يعد أخ يفكر بأخيه أو يمد له يد العون والنجدة، وأصبح كل شخص لا يفكر إلا في خلاص نفسه.

ولما عجزت أيدي **الثوار** من فتح الأبواب، تسلق أحدهم الحائط وفي يده فأس، وقفز إلى داخل **الحارة** وضرب بفأسه **قفل البوابة** المعروفة بــ (بوابة الياسمين)، ورفع الأخشاب من ورائها، وفتحها لجماعته، فاندفع ذلك البحر الهائج إلى **منازل المسيحيين**، وراحوا يكسرون أبوابها ويدخلونها ويعملون فيها **السلب والنهب والقتل والتنكيل** بكل مَن يصادفهم من أصحابها، وقد لجأ بعض المسيحيين إلى **المقابر** واختبؤا فيها، ومنهم مَن ألقى بنفسه إلى مكان آخر وفضّل الانتحار خوفاً من الوقوع بين أيديهم، غير أن مَن لم يستطع الهرب كان نصيبه القتل والتنكيل بجثته، ولم يكن هناك إلا أصوات البكاء والعويل والصراخ والولاويل التي تتفتت لها قلوب الكفار وهي تتعالى من كل جانب وبيت في ذلك الحي، وقد امتزجت بأصوات الرصاص والهدم والتحطيم، ولا عجب أن يصب الثوار جمّ

غضبهم على هذا **الحي** لأنهم كانوا يعلمون أن بيوته مليئة **بالكنوز الحقيقية** المخبأة فيه، وهذا ما كان يُضرم نار الحقد والحسد في صدور **المسلمين**، فكانوا إذا ما وقع بين أيديهم **مسيحي** ذكراً كان أم أنثى، كانوا يضربونه بالعصي والخناجر حتى يعترف لهم ويخبرهم بما لديه من **ذهب وفضة وألماس**، وبعد أن يحصلوا عليه يقتلونه وينكلون به أمام مرأى أهله لإيقاع الخوف في قلوبهم فيعترفون بما عندهم، وإذا كان قد أخفى شيئاً منهم حتى ولو كان ذلك في قعر أعمق الآبار فكانوا ينزلون فيها ويُخرجوها ثم يقتلون صاحبها.

نكبة الكنائس وحرقها:

أول شيء تعرض له **الثوار** هو **كنيسة مار آسيا الحكيم للسريان الكاثوليك**، وهي البناية الثانية بعد بوابة الياسمين، وكانت هذه **الكنيسة** تغص **بالمسيحيين** المجاورين لها واللاجئين إليها مع أموالهم وحليهم، ولما عجز الثوار عن كسر بابها الحديدي الضخم، تسلق فريق منهم إلى السطح من الحارة المجاورة وهبطوا إلى ساحتها ومنهم مَن كسر باب المدرسة ومن هناك نفذوا إلى ساحة **الكنيسة** أيضاً فالتقى الفريقان فيها، وفتحوا الباب الحديدي الكبير على مصراعيه، فدخلت تلك الجموع المتوحشة التي كانت محتشدة وراءه واندفعوا إلى الداخل، ونهبوا جميع محتويات الكنيسة، **وحرقوا أيقوناتها** الثمينة حتى **الأيقونة الشهيرة لوالدة الإله سيدتنا مريم العذراء**، وطرحوا **القربان المقدس** على الأرض وداسوه بأقدامهم القذرة، وبعد أن انتهوا من نهب الكنيسة أضرموا النار بكل شيء لم يتمكنوا من نهبه، وخرجوا منها إلى قلاية **البطريرك بطرس جروه**، فضربوه وجرحوه جروحاً بالغة جداً حتى اعتقدوا أنه قد فارق الحياة، كما جرحوا بعض **الكهنة** الذين كانوا معه، وقتلوا خادمه الذي امتنع عن تسليم بعض الأشياء التي طلبوها منه ومفاتيح الغرف الأخرى، ونهبوا كل محتويات **القلايتين السريانيتين** وأضرموا النار فيها فارتفعت ألسنة اللهب في السماء عالية كالأبراج، ثم ذهبوا مخلفين وراءهم الدمار والقتل والحرائق في كل مكان والجرحى، **وغبطة البطريرك** كان بين حي وميت، ولكن الله كانت رحمته عظيمة فقد تعطف أحد كبار **المسلمين** من أصدقاء البطريرك وأرسل إليه رجالاً نقلوه إلى بيته فطببه وأنقذه من الموت المحتم.

ومنهم مَن توجه نحو **كنيسة السيدة للروم الأرثوذكس** المجاورة **لكنيسة الأربعين شهيدة للأرمن الأرثوذكس** وفعلوا فيها ما فعلوه **بكنيسة السريان الكاثوليك**، وأشعلوا فيها النار، وأتلفوا ما تبقى فيها بعد ما نهبوا معظم محتوياتها من الكؤوس الذهبية والأواني الثمينة، وتعدوا بالضرب على **أسقفها** وعلى بعض **كهنتها**.

كان الثوار يطالبون بإلحاح بقتل **غبطة بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس مظلوم** لأنهم كانوا ناقمين عليه لتلك **الأبهة** التي ظهر بها في حلب في **عيد الأضحى**، وأول ما قاموا به أنهم دخلوا إلى **القلاية** ونهبوها، ثم نهبوا **الكنيسة الكبيرة** واحرقوها، وكسروا حتى حجارتها التي كانت على الأرض والتي كانوا يبنون بها الكنيسة، أما **غبطته ومطران الطائفة ديمتريوس**، فقد اختبأ في **مغارة** عميقة طيلة ذلك اليوم، والتهمت النيران الكنيسة من كل جانب حتى وصلت إلى كل دار ومكان حولها، من مدرسة وبيت النساء، ولم يبقَ فيها إلا السقف والجدران وأصبحت سوداء كالتنور ومهدمة من كل جانب حتى البيوت المحيطة والمجاورة لها، وكذلك فعلوا **بدار المطرانية** فأحرقوها بعد أن نهبوا كل ما طالت إليه أيديهم القذرة الملطخة بدماء الأبرياء من أواني كنسية وذخائر ونفائس ثمينة.

أما **كنيسة الأرمن الكاثوليك**، فقد نهبوا منها كل ما يستحق نهبه وكسروا كل ما لم يمكنهم حمله من **ثريات وأواني** زجاجية **ومذابح**، ولكنهم تركوا الكنيسة ولم يحرقوها.

وكنيسة الموارنة، التي كانت في حالة الترميم فلم يدخلوها فحفظها الله من شرهم، غير أن **الموارنة** كانوا قد وزعوا كل ما في كنيستهم من أواني وذخائر ثمينة وفضيات على **بيت الكلداني وبيت كنيدر** في حي وراء العمارة وبما أن جميع بيوت هذا الحي قد نُهبت دون استثناء، فكان من جملة ما نُهب تلك **الأواني الكنسية** التي خُبأت في البيتين المذكورين.

أما **كنيسة الأرمن الأرثوذكس** فقد فعلوا بها كما فعلوا بكنيسة الأرمن الكاثوليك فلم يحرقوها بل نهبوا بعض ما فيها.

وقد قُتل في هذه الفتنة المرحوم **القس جبرائيل الكلداني الماروني** (لأنه رفض أن يسلم آنية المذبح) وقتل **المقدسي نعمة الله حمصي** (لقد كتب عنه **الشيخ كامل الغزي** أن هذا الرجل هو الذي منع **المسيحيين** من دفع **الألف ليرة ذهبية** التي كان قد طلبها منهم **عبد الله بابنسي** لحمايتهم من الثوار) وخادمه من طائفة **الروم الكاثوليك**، وقتل خادم كنيسة **الأرمن الكاثوليك**

ووانيس الحلاق ويوسف القصاب الساكن في محلة **الشرعسوس**، وقد كانت **طائفة الروم الكاثوليك** قد شيدت في هذا الحي **كنيسة مزخرفة** ذهبت هي أيضا" طعما للنيران ونهبت محتوياتها، وظل **الثوار** في نهب وحرق وقتل حتى المساء، فيا له من يوم ذكّرنا بهول اليوم الأخير، يا لها من ساعات محزنة مخيفة، ويا لها من مناظر تفتت القلوب الصخرية، فلم تكن ترى في الأزقة إلا **نساء مغتصبات مفضوحات، ورجالاً يسيرون والدماء تسيل من جروحهم العديدة، وأشلاء القتلى مطروحة في عرض الطرقات**، ولم تكن تسمع إلا الأنين والعويل يخرج من كل بيت وزاوية ولا تشاهد إلا **ألسنة النار** تتعالى من كل أطراف المحلة فتحجب أشعة الشمس المشرقة، وهناك **التيجان المرصعة بالأحجار الكريمة** تتداولها أيدي **أجراء القصابين**، **والكؤوس، والكاسات الذهبية، والمباخر، والثريات الفضية** تُكسَّر بالحجارة، **وشالات الكشمير والملابس الكهنوتية المزركشة** الغالية الثمن، **والقلادات الذهبية والجواهر** تتداولها أيدي **الزبالين**، **واللؤلؤ الثمين** يباع بميزان الجزر، وقد قُدرت قيمة الأموال المنهوبة بما يزيد عن **خمسين ألف كيس** (والكيس هو خمسمائة قرش بعملة تلك الأيام) وهذا ما خلا الخراب الذي تسبب عن الحرائق والهدم والتكسير مما قُدر بأكثر من **عشرين ألف كيس**، فهذه المبالغ الجسيمة **والكنوز الثمينة** هي التي أنهت الثوار عن قتل المسيحيين، لأنهم لم يقتلوا يومها منهم سوى **/7/ أشخاص** التي ذكرت أسماؤهم سابقاً، وجرحوا نحو**/300/ شخصاً** وفي كل يوم كان يموت من هؤلاء الجرحى أناس عديدون، وقد قدّر عدد من مات منهم إلى هذا اليوم بـــ**/70/ شخصاً**، وعدد بيوت المسيحيين التي نهبت بنحو **/500/ بيت**، وكان السبب في نجاة بعضهم من الموت والنهب مجاورتهم للإسلام في بعض الحارات، فكان **المسلمون** حفاظاً على بيوتهم من النهب يدافعون عنهم ويمنعون الثوار من دخول حاراتهم، ولكن مقابل دفع الأموال الطائلة لحراستهم، وإذ لم يبقَ لهم ثقة في البقاء في منازلهم فقد لجئوا إلى **الخانات** داخل أسوار المدينة، وكانوا يضطرون إلى دفع المبالغ الطائلة لبعض **المسلمين** ليصطحبونهم وسط جموع **الثوار** إلى ديار آمنة، وهناك مَن كان يدفع كل ليلة **ألف قرش** أو أكثر ليحرس جيرانه المسلمين داره، أو ليحموه من القتل، أو من الاعتداء عليه.

أما غبطة **البطريرك مظلوم** فقد خرج ليلة الفتنة من **المغارة** التي كان مختبئاً فيها متخفياً **بثياب امرأة**، وذهب بصحبة سوكمان إلى **خان العلبية** ليختبأ عند **قنصل نابولي (ماركوبولي)**، ومثله فعل جميع **أساقفة الطوائف الكاثوليكية وكهنتها**، وفريق كبير من الشعب المسيحي، ولم يبقَ أحد من الرؤساء الروحيون في القلايات سوى **مطران الموارنة بولس أرتين** وذلك لأن الله تعالى قد حفظه من تلك الفتنة العمياء، فلم يدخل أحد منهم داره، ولو كانوا دخلوها لأحرقوها والكنيسة الملاصقة لها أيضاً.

أما عامة **الشعب المسيحي** فحدّث عن شقائهم ولا حرج، فقد كانوا في الأمكنة المخبئين فيها يرقدون على الأرض، لا يستر أجسادهم إلا أثواباً بالية تركها لهم العصاة، وهم يرتعدون من شدة البرد ولاسيما الفقراء منهم والجرحى والمرضى، وقد مات منهم العدد الكبير، هذا ما قد تم حتى نهاية يوم **الخميس المشؤوم**.

أما **الباشا (الوالي)** فلما رأى أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لقلة الجنود التي لديه، فقد فوّض الأمر إلى **عبد الله البابنسي** وعيّنه "**قائم مقام**" وطلب منه إخماد الفتنة، فحضر إلى **حي الجديدة** في تلك الليلة ومعه بعض الجنود وبات في الحي ليحميه بعد خرابه، غير أن الجنود الذين جاؤا لحمايته أصبحوا هم سرّاقه، فنهبوا كل ما بقي من **أثاث وحاجيات** وغيرها الباقية في البيوت الفارغة من أهاليها، فانقلب **الحامي إلى حرامي** كما يقول المثل الشعبي.

وفي اليوم التالي أي **الجمعة**، طاف **عبد الله البابنسي** شوارع المدينة وبرفقته بعض من جنوده وهو ينادي بعودة **الأمان للمسيحيين**، ويطلب من الثوار **إلقاء أسلحتهم** واعداً ومصرحاً بأن **قانون التجنيد** الذي أزعجهم قد ألغي، وعفى الله عما مضى، فكل ما فعله الثوار من دمار وتخريب وقتل ونهب وهتك الأعراض والتعدي على الحرمات قد ذهب أدراج الرياح وكأن شيئاً لم يكنً وكوفئوا العصاة على أعمالهم بإلغاء الخدمة العسكرية لهم عوضا" عن معاقبتهم.

أما **الأمان والسلام** فلم يتجاوز الإعلان، فقد أصبح **الرعاع** يخبئون **السلاح** تحت عباءاتهم وهم يتجولون في المدينة، **والمسيحيون** لا يتجرؤون على الخروج من منازلهم إلا في الحالات الضرورية جداً ولشراء الأطعمة فقط وبالسرعة الممكنة، وفي قلوبهم يخيّم الخوف والرعب والهلع من مصادفتهم مع أحد الرعاع المجرمين، وإذا ما صادف مسيحي أحد من الثوار فإنه لا يسلم من السب والشتائم واللعنات والضرب في أغلب الأحيان.

احتيال رئيس العصاة وتزلفه:

ويوم **السبت** زار **عبد الله البابنسي** قناصل **الدول الأوروبية** للمجاملة للتزلف والتعرف عليهم وعيّن **رمضان آغا** تفنكجي باشي أي **(مديراً للشرطة)** وذلك لأن شخصاً عُرف باسم **الرهوان** قد قبض في اليوم السابق على بعض المسلحين وأسلمهم إلى **مقر الباشا** في **الشيخ يبرق** لينالوا جزاءهم، وكان قصده أن يلقي الرعب والخوف في قلوب الثوار ليخمدوا حدة ثورتهم ونقمتهم، إلا أن بعض المسلمين تظاهروا أمام مقر **عبد الله بابنسي** استنكاراً لأعمال **الرهوان**، وطلبوا منه أن يسعى لدى **الباشا** لإطلاق سراح المساجين، وهددوا بنشر الفوضى في المدينة كلها والسعي لخرابها، فلم يجرؤ **الباشا** على مخالفتهم، فعفى عن المساجين وأطلق سراحهم فهدأت الأمور قليلاً، أما **الرهوان** فقد لاذ بالفرار لأن أهل المدينة المسلمين طالبوا بقتله.

إعلام الباب العالي بالمذبحة والفتنة:

وكان **الباشا** قد أبلغ **الباب العالي** بحقيقة الأمر، وكذلك فعلوا **قناصل وسفراء الدول الغربية** عن طريق سفاراتهم في **الأستانة**، وباتوا ينتظرون الجواب، حفاظاً على المدينة من ثورة أخرى، وعلى أرواح الشعب وممتلكاتهم، فقام **القناصل** بمبادرة أولى واجتمعوا مع **الباشا** وتداولوا في إيجاد طريقة ناجعة لتهدئة الأوضاع وكبت جماح الثوار، فقرروا أن يلبوا بعض طلبات الثوار بالتملق والحيلة، وطلبوا حضور **عبد الله بابنسي** وطلبوا منه أن يتعهد لهم بصون المدينة وأهلها، ونشر الأمان والاطمئنان على أن يسعوا هم بدورهم بطلب مكافأته لدى كبار المسؤولين، وتعهدوا له بأن لا يعاقب **الباشا** أحداً من العصاة، وأن يصدر **العفو العام** عن الجميع، وهكذا تم **لعبد الله البابنسي** ما كان يخطط له من استلام زمام الأمور من جديد، وعادت له جميع سلطاته وصلاحياته وأصبح هو **الحاكم** في **السراي**، وأرسل بعض من رجاله ينادون ويطلبون من **المسلمين** تسليم أسلحتهم، وطلب من **أعيان المدينة** اللاجئين في **الشيخ يبرق** العودة إلى منازلهم سالمين، وطلب من **الباشا** أيضا" أن يعود إلى مركزه في **دار الحكومة** إلا أن **الباشا** الذي كان في شك وخوف من نوايا **البابنسي** أصبح يتردد على **السراي** بين الحين والآخر وقام جميع **القناصل** بزيارة **البابنسي** للمجاملة وتهدئة النفوس فنادى بالأمان، وطلب من الجميع أن يعودوا إلى الأسواق لمزاولة تجاراتهم كالمعتاد، إلا أن **المسيحيين** لم يثقوا بكل ما صدر من أوامر وبات الخوف والهلع معشعشا" في قلوبهم، وباتوا في مخابئهم لا يخرجون منها إلا لأمر ضروري فقط وبغاية السرعة.

قنصل فرنسا بحلب:

ولا بد لنا أن ننوه عن مروءة وفضل **قنصل فرنسا المسيو ديلسيس** الذي استقبل في بيته يوم الفتنة جميع **المسيحيين اللاجئين** إليه ومن مختلف الطوائف ولم يرفض أحداً قط، حتى امتلأ بيته والخان المجاور له وغص باللاجئين، وأوعز إلى جميع الأديرة والخانات الخاصة بالأجانب أن تستقبل جميع اللاجئين إليهم بدون استثناء وحمايتهم ورعايتهم وتقديم كل الاحتياجات اللازمة لهم، وقام هو بنفسه بتقديم جميع الاحتياجات والأطعمة والشراب والضروريات اللازمة لكل اللاجئين في بيته وخانه والخانات المجاورة لهم، ورفض أن يتقاضى أي قرش من أي لاجئ إليه، وحرر قائمة بأسماء المرضى والجرحى وعيّن لهم **أطباء** لمعالجتهم، وحيث وجد أن العدد كبير جداً فقـــم باستئجار دار كبيرة حوّلها إلى **مستشفى** لاستيعاب الجميع، وعيّن لهم **خداماً** يعتنون بهم **وأطباء** لمداواتهم وطلب من **رؤساء الطوائف المسيحية** تقديم لائحة له بأسماء **الفقراء والمحتاجين والمنهوبين** الذين لم يبرحوا منازلهم، وخصص لكل منهم **حصة يومية** من الأغذية مؤلفة من/**50**/ درهماً من **اللحم** و/**100**/ درهم من **الخبز** وعيّن لهم خبّازاً ولحاماً يأخذونها منهم بموجب **قسائم** ممهورة **بخاتم رؤساء الطوائف المسيحية**، وطلب لهم تأمين **الفرش والأغطية** (اللحاف) من أجل النوم عليهم بموجب **شهادة** موقعة من رؤساء الطوائف أيضاً، وأرسل بعض من رجاله وسجلوا أسماء **العراة والفقراء** ووزع عليهم **قمصاناً وألبسة داخلية** من الخام الجيد، ولم يكتفِ بهذا بل كان يسعى باحثاً بكل جهده وبنشاط كبير عن **الفقراء** في كل زاوية ومكان علّه يجد واحداً منهم قد غفلوا عنه ولم يحظى على مساعدته واحساناته.

لذا فإنه من الواجب لرد الجميل لهذا الرجل الفاضل أن يُذكر وأن يدون اسمه بأحرف من ذهب ويُنقش على الصخور لئلا يُمحى ذكره إلى مدى الدهور، فلا شك بأن الله الذي سمح بنكبة شعبه قد أغاثهم أيضاً بوجود هذا الإنسان المحسن الكبير، الذي يكنُّ له شعبنا كل تقدير واحترام وحب كبير والذي خلت بمثل الأزمان والعصور .

هروب البطريرك مظلوم:

أما **البطريرك مكسيموس مظلوم**، فقد ظل مختبأ في دار **قنصل نابولي** اثني عشر يوماً، وفي يوم **الاثنين** الواقع في **1850/10/28** هرب متنكراً بلباس **ضابط تركي** إلى **اسكندرون**، ومنها إلى **بيروت**، وكان برفقته **الخوري بولس حاتم وشماساه**، تاركاً وراءه شعبه المنكوب وساعياً فقط وراء خلاص نفسه، مع أنه كان هو **المسبب الأول والرئيسي** في نكبة شعبه المسكين بسبب عنجهيته وكبريائه الفارغ كما سبق ذكره.

وأما **مطران الموارنة** بولس أرتين، الذي بقي في **قلايته** دون سائر المطارنة كما تقدم ذكره، فقد أصبحت داره **مجمعاً لأعيان المدينة وأرباب الحكم** فيها، يأتونها كل يوم للتفاوض فيما يخص أحوال المسيحيين، حتى أضحت تلك القلاية **محكمة ثانية**، يتقاطر إليها الناس من الصباح حتى المساء من **مسيحيين ومسلمين، وجنود ومشايخ، وموظفين وحكام**، وكانت جميع القرارات والأوامر تتم بمشورته وعلمه وتصديقه عليها.

الحياة العامة بين الشعب:

أما الحياة العامة فقد بقيت الأحوال فيها مضطربة، وبقي الخوف والهلع مسيطراً على نفوس وقلوب المسيحيين، وبدأت الجنود تنسحب رويداً رويداً من الأطراف والنواحي وتتجمع في **ثكنة الشيخ يبرق**، وأما **عبد الله البابنسي** فكان يحلم بالحصول على إنعامات من الدولة لضبطه النظام وحفظه المدينة من فتنة أخرى، لذلك كان يتجول في المدينة طالباً من **المسلمين** رد جميع المنهوبات إلى أصحابها **المسيحيين**، وبدأت بعض المنهوبات البسيطة من فراش وأغطية نوم (لحاف) ومخدات لا نفع لها يعيدونها إلى المسيحيين، وقد طلب **عبد الله** من **المطران بولس أرتين** أن يستلمها ويعطيه وصلاً بها، قاصداً من ذلك أن يظهره للمسؤولين ليُظهر إخلاصه للدولة وينال رضاها، ولكن **المطران** أبى أن يستلم شيئاً منها، وطلب منه أن توضع في **كنيسة الروم الكاثوليك** لبعض الوقت.

وبقيت الأحوال على هذا الشكل والمدينة في غليان وتمرد وعصيان مدة **عشرين يوماً** متوالية، وقد بدا على **المسلمين** الندم والأسف على عدم قتل جميع **المسيحيين** وإبادتهم يوم الفتنة لأن الظروف كانت مساعدة لهم جداً وراح البعض يصرح بنواياه علناً، ويعد ويتوعد بتحقيق ذلك بأقرب فرصة ممكنة، واستعداداً لذلك اليوم العصيب المتوقع، ولمقاومة الحكومة أيضاً إذا ما أقدمت على تأديبهم ومعاقبتهم على تكرار فعلتهم، راحوا يشترون **السلاح** حتى بلغ ثمن **البندقية** الواحدة **/50/** قرشاً، و**/300/** قرش وأكثر، إلى أن لم يبقَ رجل واحد تقريباً إلا وتزوّد بضعفين وثلاثة أضعاف من السلاح، ومنهم مَن أخذ يعمل في صنع **البارود**، وغيرهم في **صب الرصاص**، ومن جراء ذلك فقد حدث في المدينة عدة هزات وكثرت الأقاويل والشائعات، ولم ينم **مسيحي** واحد طوال تلك المدة ليلة واحدة نوماً آمناً مطمئناً لأن الخوف كان يملأ قلبه من الغدر والمباغتة.

وصول الإمدادات من الجيش
والقبض على العصاة ورئيسهم:

أثناء ذلك كانت **الجيش السلطاني** يتوافد على المدينة من مختلف الجهات وقد تجمع منه ما يقارب **/6000/ جندي** بين نظامي وغير نظامي، فوزع الوالي ما يقارب **/200/ جندي** في **القلعة** واحتفظ بالباقي لديه في **الشيخ يبرق**، وفي عصر يوم **الثلاثاء** الواقع في **1850/11/5** راحت الناس تتراكض في الأزقة والشوارع والخانات تُقفل أبوابها، **والمسلمين** يهرعون لحمل أسلحتهم، **والمسيحيين** يهرعون للاختباء في منازلهم، وما هي إلا لحظات وإذا بالمدافع تطلق قذائفها من **الشيخ يبرق والقلعة** في آن واحد، لأن الأوامر قد وردت من **الدولة** بوجوب ضرب العصاة وتأديبهم وإصلاح أحوال البلاد، فما كان من **الوالي** إلا أن استدعى **أعيان البلدة** من **المسلمين** ومنهم **البابنسي** بحجة قراءة **الفرمان** الوارد من **السلطان** عليهم، وما أن وصلوا إلى **الشيخ يبرق** أمر **الوالي** بالقبض على **البابنسي** وأودعه في السجن مع أتباعه المرافقين له، وما أن علم العصاة بذلك حتى تسلحوا جميعهم وقصدوا **الشيخ يبرق** محاولين إطلاق سراح زعيمهم ومرافقيه فقابلهم **الجيش** بإطلاق النار عليهم، فرد العصاة على النار بالمثل ولما بلغ النبأ أهالي أحياء قرلق وبنقوسة وباب النيرب حتى تسلحوا جميعهم لنصرة إخوانهم، فمنهم مَن التحق برفاقهم في **الشيخ يبرق**، ومنهم مَن أخذوا يقيمون **الحواجز** في أحيائهم وقد نصبّوا لهم **مقدماً رئيساً** لهم وهو **محمد بابنسي** وهو ابن عم **عبد الله** المقبوض عليه، ودارت المعارك بين الفريقين، أما **العسكر** الذين كانوا في المخافر

فمنهم من التحق **بالأوردي** في **الشيخ يبرق**، ومنهم من بقي في مكانه شاهراً سلاحه في وجه جماعات العصاة القادمة إليهم، وأما **الجيش** الذي في **القلعة** فمنهم مَن كان يطلق المدافع على أحياء العصاة والثوار، ومنهم مَن كان يرد بالنار على كل مَن يحاول الاقتراب من القلعة، وبقيت المعارك دائرة بين الفريقين حتى غياب الشمس.

ومن سوء حظ **المسيحيين** فقد سقطت **الأمطار والبرد** بشكل غزير جداً فانتهز فريق من أهالي **حي المشارقة** الفرصة وأغاروا على **حي الصليبة** مرة ثانية، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم مما تبقى في حوزة سكان ذلك الحي مما غفل عنه الثوار، وكانوا يقرعون الأبواب بشدة وعنف، وكانوا يركضون خلف كل مَن يرونه فيتعدون عليه بالضرب المبرح، وبقي مَن ظل في بيته مقيماً في خوف وهلع كبيرين طوال تلك الليلة.

أما **محمد بابنسي**، زعيم الثوار الجديد فقد أرسل شخصاً إلى "**دهام**" أمير "**عرب العنزة**" ليأتيه بنجدة لإنقاذ ابن عمه **عبد الله**، لأن **عبد الله** كانت له مكانة ومحبة كبيرة عند العرب، كما أرسل رسلاً إلى **القرى والنواحي** المحيطة يدعوهم إلى نصرته ونجدته، وأخذت أفواج وجموع **الفلاحين** من سكان القرى والنواحي تتوافد على المدينة، وقد انضم إليهم **أهالي الأحياء** أيضاً فاصبح العدد ما يقارب **/30/** ألف ثائر.

نشوب المعارك بين العصاة والجيش:

ولما بزغ فجر يوم **الأربعاء** عادت المعارك بين الفريقين واستمرت حتى الظهيرة، أما خوف **المسيحيين** في هذين اليومين فلا حدود له، فضجيج الثوار وصراخهم، وبريق أسلحتهم وهم يطوفون بالشوارع والأزقة كان يلقي الخوف والهلع في القلوب، ولاسيما تهديداتهم التي تُنبئ بأن نهاية **المسيحيين** قريبة جداً على أيديهم بعد ساعات قليلة، وقد شاع عنهم أنهم مزمعين بعد انتصارهم على **جيش القلعة** أن يبيدوا كل **مسيحي** في حلب، وبذلك تبقى الأموال المنهوبة في حوزتهم وملكاً صرفاً لهم، إلا أن العناية الإلهية قد عجّلت بالقضاء عليهم، ومكّنت سيوف **جيش الدولة** من رقابهم قبل أن يتمكنوا من تحقيق آمالهم وأمانيهم الشريرة.

وعادت الحرب بعد الظهر بين الفريقين أشد ضراوة مما كانت عليه، وما أن حان العصر حتى كان **الجيش** قد تغلب وانتصر على جموع الثوار بشكل قوي ومحكّم، فهرب هؤلاء وهم لا يلوون على شيء إلى حي **بنقوسة** وتحصنوا فيه، ولكن **الجيش** ما لبث أن لحق بهم إلى عقب دارهم وأنزل بهم أشد الضربات وكسر شوكة مقاومتهم وهدم **الجيش** كل **حواجزهم وتحصيناتهم** واحتل **الحي** بكامله، ولم يتوقف **الجيش** عند هذا الحد بل نهبوا كل **أموال محلاتهم ودكاكينهم وأحرقوا أسواقهم وبيوتهم**، وسقط القتلى من كلا الطرفين، وأصيب **محمد بابنسي** بطلقة فحملوه جريحا، إلى حي **الكتّاب** وهو مخصص لمساكن الجاليات الأجنبية، وانتقل الثوار من **بنقوسة** إلى حي **باب النيرب** وتجمعوا فيه وألقوا بكل قواتهم في هذا الحي، ولكن **ألسنة النيران** ما لبثت أن امتدت إلى هذا الحي أيضاً وما أن حل الظلام حتى توقفت المعارك بين الفريقين.

وحين كاد اليأس يستحوذ على جموع **الثوار** حتى بزغ لهم بريق أمل آخر حيث وصلتهم البشرى بأن "**دهام أمير العرب**" قد وصل إلى **حلب** في تلك الليلة، فهللوا لهذا النبأ السعيد واستبشروا بالنصر الأكيد، وما أن بلغ نبأ وصوله إلى مسامع **محمد بابنسي** حتى نسي جرحه وذهب لاستقبال الأمير في **باب النيرب**، وبعد أن رحب به تفاوض معه على خطة العمل لليوم التالي، واتفقا على أن يبقى **العربان** خارجاً من وراء **الجيش**، ويقف **أهل المدينة** من أمامه، وفيما الجيش منهمكاً في محاربة الأهالي ينقض العربان عليهم وينهوهم، ولكن الله جلّت رحمته فقد قلب خطتهم وبالاً عليهم، والحفرة التي حفروها سقطوا فيها.

فما أن انبلج فجر **الخميس 7/ تشرين الثاني** حتى ابتدأت المعارك بشدة وعنف، وأخذت **المدافع** تقذف بحممها من **القلعة والشيخ يبرق** حتى الضحى، ولما رأت قوات الحكومة أن الثوار لم يخرجوا من خلف تحصيناتهم انطلقت فرقة منهم مع المدافع إلى **أرض عوّاد** الواقعة تجاه **باب النيرب**، وما أن وصلت إلى هذه البقعة حتى فوجئت بشرذمة من العربان يعتلون تلاً من ورائهم وأهالي الحارات يخرجون من أمكنتهم من وراء التحصينات وينقضون على أفراد الجيش وعلى **الشيخ يبرق** مستبشرين بالنصر، فما كان من **الجيش** إلا أن حولوا فوهات مدافعهم باتجاه العربان وقذفوهم بالقنابل، ولما رأى العربان الهول من القنابل المنصبّة عليهم كالسيل وهي تفتك بهم شر فتك ولّوا الأدبار عائدين من حيث أتوا بعد أن قتلت منهم عدداً لا يُحصى، وفيما كان أهالي الحارات يهاجمون **الشيخ يبرق** وقد ارتفعت أصواتهم المنكرة بالتهليل **والتكبير**، وقد تعالت أصوات بنادقهم، وقبل أن يتقابلوا مع الجيش وجهاً لوجه

فإذا بفرقة من أفراد الجيش قد نزلت من البوابة المعروفة **ببوابة الزعّار**، وهاجمت العصاة من خلفهم على حين غرة، وأطلقت النار عليهم واستدارت بهم وجعلتهم بين فكي كماشة يحيط بهم الجيش من الأمام والخلف، فلما أدرك العصاة أنهم قد خسروا المعركة وأنهم هالكون لا محالة، فاستسلموا للهرب، وراحت فرق الجيش المنتصرة تطاردهم فقتلت العديد منهم بالسيف والرصاص، ولم يكتفوا بذلك بل أحرقوا جميع **الأحياء الإسلامية** الثائرة عليهم ونهبوا بيوتهم، وكان من بين البيوت التي أحرقت خانات **عبد الله بابنسي**، فنهبوا جميع محتوياتها المليئة بالمنهوبات الخاصة بالمسيحيين ثم أحرقوها جميعها.

عودة الأمان إلى المدينة وخلع الوالي من منصبه:

وطاف أفراد من **الجيش** إلى **شوارع** المدينة **وأزقتها** وهم يبلغون السكان بالطمأنينة ويعيدون الثقة إلى النفوس الخائفة، ولم يبق **مسلماً** واحداً خارج بيته خوفاً من بطش الجنود وتنكيلهم به، وأرسل **الباشا** رسولاً ينادي ويبلغ الناس في الشوارع والأزقة بوجوب فتح **متاجرهم** واستئناف **أعمالهم**، فاطمأن **المسيحيون** قليلاً فخرجوا من مخابئهم، وعيّن **الوالي** السيد **يوسف بك شريف زاده** قائم مقام مدينة حلب، فأرسل هذا رجال شرطته المسلحين إلى بيوت **المسلمين** قابضاً على مسببي المذبحة وزعمائها، أما **رمضان آغا** الذي كان قد عُيّن مديراً للشرطة، **ومحمد بابنسي** فقد اختبأ عند أحد القناصل **المسلمة**، فأرسل **الوالي** فرقة من الجيش إلى بيت القنصل الملتجئين عنده وقبض عليهما وزجهما في السجن مع **عبد الله بابنسي**، كما ألقى في السجون ما يقارب /500/ **مسلم** من العصاة ومثيري الشغب والفوضى.

وفي اليوم التالي أرسل **الباشا** منادياً يطوف **أحياء المسلمين** داعياً إياهم إلى إعادة **المسروقات** إلى أصحابها **المسيحيين**، وحدد فرصة لإعادتها **/15/ يوماً**، وعيّن فريقاً من **موظفي الحكومة** لاستلامها، فحضر الموظفون إلى **مطرانية الموارنة** وابتدأت الأموال المنهوبة تعود إليهم، وكان **وجهاء المسيحيين** يلازمون دار المطرانية من الصباح حتى المساء لاستلام المسروقات، وكانت توضع في **كنيسة الروم الكاثوليك** المحروقة، وعُيّن حراساً من المسيحيين لحراستها، وأما الموظفون الحكوميون فكانوا يواظبون عملهم في دار المطرانية حتى المساء وهم يسجلون المسروقات وكمياتها، إلا أن ما ورد إليهم بمقدار شعرة من رأس مما سُرق ونُهب، **فالذهب والألماس والفضة والأشياء الثمينة** لم يروا منها شيئاً إلا **القناديل الفضية** المهشمة التي لا تنفع شيئاً، مع أن ما نُهب من **الفضة** فقط من الكنائس والبيوت لا يعد ولا يحصى، وقد وُزن النحاس المعاد فبلغ 3% من مجموع ما سُرق، أما **الذهب والألماس** والأشياء الثمينة فلم يعد منها شيء، وعند انتهاء المدة التي حددها **الوالي** لإعادة المسروقات وكان **المسيحيون** في غاية الشوق لمعرفة ما سيحدث للجناة، فوجؤا **بالوالي** قد خُلع من منصبه واستلم مكانه **والي** آخر وهو **محمد باشا القبرصي** وقد جاء من **استنبول**، والذي كان **سفيراً** لبلاده في **فرنسا وإنكلترا**، وقد وصل النبأ **للوالي** المعزول بالبريد من استنبول إلا انه أمر بعدم توزيع البريد إلا الخاصة بالقناصل فقط.

تنصيب الوالي الجديد:

وبعد توزيع الرسائل على القناصل، جاء **معاون قنصل إنكلترا** لزيارة **مطران الموارنة** واخبره عن لسان **القنصل** بأن السفير الإنكليزي في **الأستانة** قد حزن جداً لما حدث في حلب، وقد توجه على الفور إلى الصدر الأعظم وأبلغه بكل ما حدث، فانتاب **السلطان** غم وحزن شديدين عند سماعه بالأنباء المحزنة، وقد طلب السفير الإنكليزي من **الصدر الأعظم** وبشكل رسمي الطلبات التالية:

1- **حماية وصيانة أرواح وممتلكات وأعراض جميع الأجانب والسكان المسيحيين في حلب.**
2- **معاقبة القائمين بالفتنة والمذبحة والمحرضين عليها بأشد العقوبات.**
3- **إعادة جميع الأموال المسروقة إلى أصحابها فوراً.**

فوعده الصدر الأعظم بتحقيق ذلك وبالسرعة الممكنة، وبالإضافة إلى هذه الوعود فقد جهزت الدولة فرقاً من **الجيش** في **استنبول** وأرسلتها إلى حلب (انتهى كلام السفير).

وقبل يومين أرسل **ظريف باشا** (الوالي المعزول) **/220/** رجلاً من **العصاة**، وهم مكبلين بالسلاسل الحديدية إلى **استنبول** عن طريق البحر.

ويوم **الثلاثاء 26/ تشرين الثاني**، توجه فريق من **وجهاء** المدينة إلى **اسكندرونة** لاستقبال **الوالي** الجديد حيث بلغهم نبأ وصوله إليها.

ويوم **الخميس 28/ تشرين الثاني**، أوعز **الوالي** المعزول إلى الموظفين الذين عينهم لاستلام الأموال المسروقة أن يسرعوا في إعداد قائمة بجميع ما وردهم من تلك المسروقات حسب أصنافها وأعدادها، فقام الموظفون بذلك بكل جد ونشاط وسرعة، ودوّنوا جميع المسروقات المعادة في دفتر خاص وسلموه إلى **الوالي**.

وفي هذه الأثناء ورد **رُقيّم** من الدولة إلى **كريم باشا (الجنرال بيم البولوني)** تشكره فيه على مساعيه الفعالة والحميدة في إخماد ثورة حلب والثناء عليه.

هذا ملخص ما وصلنا عن حوادث مذبحة حلب المشؤومة، ويبدو أن كاتب التقرير أراد أن يصل إلى تاريخ **20/ تشرين الثاني 1850** ويقف عنده إلا أن ما حدث بعد ذلك قد أخّر إرسال التقرير إلى **البطريرك**، فأضاف إليه ما جرى ، فقال:

على الرغم من هدوء الوضع، وفتح الأسواق، وعودة الناس إلى مزاولة أعمالهم، فإن فلول العصاة ما زالوا يطوفون البلدة جماعات جماعات، وهم فرحون مرحون مسرورون، لزعمهم أن ما قد تم حتى هذا التاريخ من القمـــع والتأديب قد أعتبر كافياً، وأن السلطة لن تعود إلى مطاردتهم ومضايقتهم بعد اليوم، ومن ثم لم يعد أحد يردُّ شيئاً" مما نهبه وسرقه، ولم يعد أحد يهتم بالأمر بعد اليوم، بل أن بعض العصاة راحوا ينصبون "**الأراكيل**" أمام محلاتهم وبيوتهم ويشيعون الإشاعات والأكاذيب المختلفة التي تكاد تشفي غليلهم وحقدهم الدفين على **السلطة والمسيحيين**، وليلقوا الرعب والهلع في القلوب مر ثانية، ومدعين أن عزل **الباشا** من منصبه لم يكن إلا بسبب استياء **الدولة** منه لأنه أحرق أحياءهم وبيوتهم وسمح بنهب أموالهم وممتلكاتهم، وأن **الوالي الجديد** القادم من **استنبول** قد أمر بتعمير محلاتهم والتعويض عن خسائرهم، وأنه سيهمل **المسيحيين** ولن يعوض لهم أي شيء لأنه مسلم مؤمن بعقيدته ولا يمكن له أن يناصر كافراً على أخيه المسلم.

يوم **السبت 30/ تشرين الثاني**، حضر من جهات **خربوط** نحو **ألف جندي** من مشاة وفرسان إلى مدينة حلب.

وصول الوالي الجديد إلى حلب وقراراته:

ويوم **الأحد 1/ كانون الأول**، خرجت المدينة بجميع **وجهائها وزعمائها وباشاواتها** لملاقاة **الوالي والباشا الجديد**، وعند الظهر دخل **الوالي الباشا** المدينة باحتفال عظيم، مصحوباً **بأربعة آلاف جندي وأربعة مدافع**، ونزل عند وصوله في قلعة **الشيخ يبرق**، حيث أطلقت **المدفعية** قذائفها تحية له، وما أن استراح قليلاً حتى أمر بإحضار **عبد الله بابنسي** ليمثل أمامه، ولما مثل في حضرته انهال عليه **الباشا** باللوم والتقريع والتوبيخ على ما وقع في حلب، وعلى تزعمه حركة الفتنة والعصيان، ثم أمر بأن يكبلوه مع رفاقه بقيود الحديد ويسوقونهم إلى السجن مرة ثانية، وبعد نحو ساعتين توجه **الباشا** إلى **السراي** حيث أطلقت المدفعية قذائفها تحية ثانية له.

يوم **الاثنين 2/كانون الأول**، استدعى **الوالي** جميع **الأساقفة، والتجار، وأعيان المدينة، ومشايخها**، للاستماع إلى **فرمان** تعيينه، وغصت **السراي** بالمدعوين، وانضم إليهم حشد كبير من الشعب، وعدد كبير من أفراد **الجيش والشرطة**، وما أن شرع في تلاوة الفرمان حتى انطلقت المدفعية تطلق قذائفها من **القلعة** تحية له، وبعد أن انتهى من قراءته التفت **الوالي** إلى الجمع المحتشد وخاطبهم قائلا:

"إن **الدولة العليا**، أدامها الله، إذ بلغها خبر العصيان الذي حدث في حلب، فأرسلتني لكي أقذف البلدة بالمدفعية وأأدب العصاة وألقنهم درساً لن ينسوه، ولكني إذ رأيت أن كل شيء قد انتهى والسكون والأمن قد استتب لم أرَ وجوباً لتطبيق تلك الإرادة بشدتها، غير أن العصيان وإن لم يكن قد زال ظاهرياً ولكنه لا يزال كامناً باطنياً وفي الخفاء، لذلك أرى لزاماً عليَّ أن أنفذ الإرادة السنية في أهم القضايا، وهي:

أولاً: إعادة الأموال المسروقة من الرعية إلى أصحابها حالاً.

ثانياً: إعادة السلاح الذي نهبه العصاة يوم الثورة من شعرية الدولة (مخزن الذخيرة العسكري).

ثالثاً: معاقبة العصاة.

رابعاً: تطبيق الجندية على أهالي المدينة.

واسترسل الوالي في خطاب طويل يشرح فيه **فظاعة الجريمة** التي ارتكبها أهالي حلب بحق **المسيحيين**، وكم تأثر **السلطان** وغضب عندما سمع عنها حتى لم تعد عيناه تذوقان طعم النوم لما أصابه من الغم المستولي عليه.

موجة الإعتقالات:

ثم أمر أن يعتقل **بهاء الدين أفندي قدسي** ويُساق إلى السجن مع العصاة، وإذ بدأ **بهاء الدين أفندي** يبرر نفسه، طالباً من **الوالي** أن يحقق في أمره، أجاب **الوالي** أن الدولة أمرته بسجنه وإرساله مع العصاة إلى **الأستانة** وفي الحال اعتقله الجنود من الحفل وساقوه إلى السجن في **الشيخ يبرق**، ثم التفت إلى **الأساقفة** مخاطباً إياهم ببشاشة ومعزياً إياهم بما أصابهم وأصاب **كنائسهم ورعاياهم**، واعداً بأن كل ما فقدوه سيعاد لهم، طالباً منهم أن لا يحزنوا ولا يقلقوا أبداً، وأن يرفعوا الأدعية إلى الله بدوام حياة **مولانا** السلطان عبد المجيد خان، ثم طلب منهم أن يهيئوا **قوائماً** بالأشياء المسروقة جميعها ويقدموها إليه، وأن تنتخب كل **طائفة** رجلاً منها ذا فطنة ودراية ليشكلوا من مجموعهم **أعضاء للمجلس العالي**.

وبعد الاجتماع عاد **الأساقفة** إلى قلاياتهم واستدعوا **رؤساء الأحياء وأعيان الطوائف**، وأوصوهم بأن يسجلوا قوائم بالمسرقات وأوصوهم أن لا يحاولوا أبداً وتحت طائلة **العقاب الكنسي** تسجيل أي شيء آخر غير المسروق فقط، وأصبحت كل طائفة تسجل ما سُرق منها وتقدمه لرئيسها الروحي.

زيارة أساقفة حلب للوالي الجديد:

ويوم الثلاثاء 3/ كانون الأول، ذهب **الأساقفة** كلهم بزيارة رسمية **للوالي** للترحيب به **والياً** للبلاد، وقد استقبلهم بكل لطف وإكرام واحترام، وكان يخاطبهم بكل بشاشة تارة **باللغة التركية** وتارة **بالعربية**، وأفهمهم أنه مهتم جداً بتتميم رغبة وإرادة **السلطان الأعظم**، وهي إعادة الأمان والسلام والرفاهية لهم ولرعاياهم، وأن كل شيء سوف يتم حسب مرامهم ورغباتهم ، فخرجوا من حضرته وكلهم ينطقون بشكره والثناء على فضله ورعايته، والحقيقة أن ما ظهر منه من الحكمة والعدل وحسن التدبير، وما اتصف به من اللطف والأخلاق الحميدة، لمما لم تشهد له البلاد مثيلاً من قبل، فطلبوا من الله تعالى أن يحفظه سالماً من غدر العصاة المجرمين.

وفي **اليوم نفسه** أرسل لهم **منشوراً** كان قد قُرأ في **المحكمة** على **المسلمين** يأمرهم فيه بوجوب الإسراع في رد المسروقات لأصحابها، وعلى الأثر عاد **الموظفون** السابقون إلى **مطرانية الموارنة**، وابتدأت الأموال التي نُهبت تعود في نفس اليوم، وقد أمر **الوالي** أن يسجل موظفوه يوماً بيوم قائمة بالأموال الواردة ويعرضونها عليه ليحيط بها علماً.

وفي هذا اليوم غادر حلب **مصطفى ظريف باشا** واليها السابق إلى **الاسكندرونة** ومنها إلى **الأستانة**، نسأل الله أن يحمي المدينة التي سيُنصّب عليها والياً، هذا إذا بقي حياً ولم يُعاقب على فعلته من **الباب الأعظم**.

الإجراءات الحازمة للوالي ضد العصاة:

يوم الأربعاء 4/ كانون الأول، استدعى **الوالي مختاري الأحياء الإسلامية** جميعهم، وأوقفهم في وسط **السراي**، ثم أحضر **أعيان المدينة** وأوقهم مقابلهم، ثم خرج **الوالي** ومعه **وزيران** من **باشاوات الجيش** ممتطين صهوات خيولهم في وسط **السراي**، ثم أمر **الوالي** بأن يُحضروا **العصاة** من السجن، فجاءوا بهم وهم: "**عبد الله بابنسي، وابن عمه محمد بابنسي، وبهاء الدين أفندي القدسي، وعمر بن عيسى، ورمضان** (مدير الشرطة السابق)، **واثنان آخران**، وكلهم يمتطون البغال، وفي أرجلهم القيود الحديدية مربوطة بأرجلهم من تحت بطون البغال، وعلى صدورهم لائحات كتب عليها:

" هذا هو جزاء العصاة المفسدين "

ثم أوقفوهم أمام **مختاري الأحياء والأعيان**، والتفت **الوالي** إلى **المختارين** وخاطبهم قائلاً:

"انظروا إلى هؤلاء الأشقياء، الذين لا نعرف مَنْ هم، هل هم كفرة أم يزيديون أم مجوس؟؟.. إنهم سيكونون العبرة لمن اعتبر، وسينالون القصاص الذي يستحقونه وكل مَن يعصي أوامر السلطان الأعظم وقوانينه".

وما أن انتهى من كلامه حتى قُرعت **الطبول**، وعلى أصواتها خرج بعض **العساكر** من **السراي** يحيطون بالعصاة من كل جانب، ويسوقونهم إلى **الاسكندرونة** حيث يُبحرون منها إلى **الأستانة** لينالوا عقابهم.

ثم صعد **الوالي** إلى قصره وأمر بأن يُحضروا **المختارين** كلهم وقوفاً بين يديه، ولما اجتمعوا أقام في وسطهم وأخذ يوبخهم ويؤنبهم على سوء تصرف أهالي حلب بإخوانهم وجيرانهم **المسيحيين**، فقال لهم بحدة وشدة:

"إن العقلاء وأهل الشرف من الإسلام ليسوا بأبرياء من هذه الجريمة الشنيعة البشعة التي ارتكبت بحق المسيحيين، فقد كان بإمكانهم أن يردوا العصاة على أعقابهم ويمنعونهم من فعلتهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل وقفوا يتفرجون على ارتكاب هذه الجريمة البشعة".

ثم أنهى حديثه بوجوب **المختارين** على رد **الأموال المسروقة** لأصحابها المسيحيين لأنهم يعرفون السارقين جيداً، وأعلن لهم أن مَن يرد مسروقاته فلن نعاقبه، ولكن إن بقي عند أي **مسلم** مثقال ذرة من المسروقات فإننا لن نتساهل معه أبداً، بل سنقبض عليه وعلى **مختار** محلته ونعلقهما من آذانهما إلى أن تخرج روحهما منهما.

جمع وإعادة المسروقات:

ثم أمر أن يرافق كل مختار **جنديان** يساعدوه على أمر التحصيل، فخرج **المختارون** من حضرته وفي قلوبهم الخوف والرعب والهلع، وراح كل منهم يسعى بكل وسيلة وحيلة أن يُخرج من محلته كل مال مسروق خوفاً من القصاص الهائل الذي يتهدده، وخوفاً من التفتيش المفاجئ لحارته المسؤول عنها وكشف أمره، ومنذ ذلك اليوم أخذت **المسروقات** تعود تباعاً وبانتظام إلى **القلاية المارونية**.

ويوم الجمعة 6/كانون الأول، قدّم **رؤساء الطوائف** قوائمهم إلى **الوالي** تلبية لطلبه، وقد بلغ مجموعها /26,5/ **ألف كيس** ما عدا الذي كان طعمة للنيران، أو ضحية الهدم والخراب، فنلاحظ هنا الفرق الكبير بين المبلغ المسترد وبين المبلغ الحقيقي المسروق الذي ذكر سابقاً في الحديث عن يوم الكارثة.

وإذ بلغ مسامع **الوالي** أن فريقاً من العصاة الذين تقدم ذكرهم قد تمكنوا من الفرار، أرسل فأعلن لجميع البلاد المجاورة بوجوب القبض على كل **حلبي مسلم** هارب وإرساله مخفوراً ومكبلاً بالحديد إلى **حلب**، وقد تم القبض على اثنين من **القبضايات** في مدينتي **حمص وحماة**، وسيحضران صباح هذا اليوم إلى مدينة حلب.

انتهى تقرير

مطران الموارنة بولس أرتين

بحلب

إلـــــى :

بطريرك الموارنة يوسف الخازن

بكركي - لبنان

حلـــب فـــي :

الأحـــد 8/ كانـــون الأول 1850